مراجعات في الكتب

تاريخ أحمد المنصور السعديّ وأبنائه من خلال مذكرات الأسير البرتغالي أنطونيو دي صالدانيا

⇨ أنطونيو دي صالدانيا، ***أخبار أحمد المنصور سلطان المغرب***، ترجمة إبراهيم بوطالب وعثمان المنصوري ولطفي بوشنتوف، الرباط، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، 2011، 320 ص.

يعتبر إصدار الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر للترجمة العربية لهذا الكتاب ذا فائدة كبيرة بالنسبة للقراء والمهتمين بتاريخ الدولة السعديّة في أوج عظمتها السياسية وقوتها العسكرية وازدهارها الاقتصادي على عهد السلطان أحمد المنصور.

وهو عمل أكاديمي يدخل ضمن خطّة الجمعية التي دأبت ـ بفضل مؤسسها المؤرخ المرحوم محمد حجي ورفاقه ـ على نشر أهم المصادر والعيون الأوربية المتصلة بتاريخ المغرب في العهد السعديّ.

تمت الترجمة العربية من الأصل البرتغالي القديم الذي حققه وأعده إعدادا علميا الأستاذ المحقق البرتغالي أنطونيو دياش فارينيا، كما جاء في كلام الـ«تمهيد» (ص16)، وقارن المترجمون المغاربة الأصل مع الترجمة الفرنسية التي قام بها ليون بوردون كلما دعت الحاجة.

والكتاب في الأصل «**تقاييد أو مذكرات شخصية**» سجّلها المؤلف في الحين ـ وهو نبيل برتغالي أسره المغاربة خارج طنجة سنة 1592 وأرسلوه إلى أحمد المنصور حيث ظل بمراكش أسيرا لدى السلطان من عام 1592 إلى سنة 1603ـ أو رواها ثلاثة عقود بعد افتكاك أسره وعودته إلى لشبونة: «**ولقد أتى على هذه الذكريات** ـ يقول المؤلف ـ **حين من الدهر تلقاها فيه كبار الوزراء بصدر رحب وألزموني بتدوينها... لكن الأمر توقف بسبب أحداث مختلفة**» (ص22).

فالفترة التاريخية المروية في الكتاب هامة جدّا إذ أن شهادة الأسير تغطي فترة طويلة من حكم أحمد المنصور، وظروف وفاته الملتبسة بعد حملته الأخيرة الموفقة على فاس لانتزاع السلطة من ولي عهده العاق محمد الشيخ، ونزاع أبناء المنصور على حكم المغرب نزاعا دمويّا، في أواخر حياته ثم بعد مماته.

وإذا علمنا أن الشاهد كان مطّلعا على ما يجري في بلاط السلطان أحمد، بفضل ما كان يتمتع به من حرية في التنقل داخل المدينة الحمراء، واختلاطه الشديد بكثير من الأسرى البرتغاليين والأوروبيين الذين ظلوا على دينهم في انتظار افتكاك أسرهم (ص168: «**وقد علمنا**

من بعض الأسرى»)، واتصاله ببعض القواد المغاربة الكبار وصداقته لهم، إذا عرفنا كل ذلك أدركنا مدى أهمية الأخبار التي دوّنها هذا الأسير البرتغالي النبيل عن المغرب في عهد السلطان المنصور وأبنائه.

تتصدّر متن الكتاب المترجم مقدمة وجيزة توجه فيها المؤلف بالحديث إلى ابنه الأكبر أيرش، مستعبرا أحداث حياته الغزيرة إثر بلوغه الستين من عمره، ومعترفا فيها بأنه قضى «**أفضلها في بلاد البربر**» على حدّ قوله (ص21).

كما دعا فيها هذا الراوي إلى عدم تصديق الإشاعات المغرضة التي تروّج كثيرا في إسبانيا والبرتغال حول المغرب، واقتناص «**الفرص بفضل الجوار لتحسين العلاقة**» معه، متحسّرا على مصير الملك الشاب المتسرّع الدون سباستيان بعد نكبة معركة وادي المخازن، و«**ما واكب تلك الهزيمة من الشقاء والمحن**» نتيجة فقدان دولة البرتغال لاستقلالها وعظمتها وصيتها الإمبراطوري (ص22).

ينتمي الكتاب إلى جنس المذكرات التاريخية الذي اتّسم به التأريخ البرتغالي في القرنين 15م و16م. وهو جنس أدبي يقوم على استخلاص العبر من أحداث التاريخ، ويتميز، من جهة المضمون، بسرد الأخبار وفقا لرؤية الشاهد أو سماعه بها طبقا للتسلسل الزمني للأحداث في الغالب، ومن جهة الشكل، بالبساطة في اللغة والتعبير مع حسن التصوير والربط بين فصول الرواية ربطا محكما.

وتجدر الإشارة إلى أن الراوي أنطونيو دي صالدانيا استعان بكاتب محترف لتدوين مروياته، ولهذا إذا كانت الرواية تجري أساسا في الكتاب بضمير المتكلم الراوي، فإن كاتب النصّ يتدخل أحيانا ويتحدث عما فعله الراوي أو الشاهد أمام فشل خطط افتكاك أسره: «**ولما شعر أنطونيو دي صالدانيا بتزايد الحواجز** [لافتكاكه] **ودواعي اليأس، قرر الفرار من القصر الكبير.**» (ص201).

يضم الكتاب مائة وستة وأربعين (146) فصل صغير، تبدأ بوصف أحوال المغرب بعد انتصار المغاربة في وقعة وادي المخازن وتملك أحمد المنصور (ف 1ـ2)، وتنتهي ـ فجأة ـ بالعودة إلى الحديث عن كيفية وقوع المؤلف ورفيقيه النبيلين في الأسر بضواحي طنجة سنة 1592 عندما كان أب المؤلف حاكما على طنجة (ف 145ـ146).

ويمكن التمييز داخل الكتاب بين قسمين أو نوعين من الفصول (أو الأخبار):

أ ـ الفصول الأولى التي لم يعش الراوي زمن أحداثها بالمغرب وإنّما روى أخبارها سماعا عن الآخرين، وهي تبدأ من ف 1 إلى ف 65؛

وب ـ الفصول اللاحقة التي دوّن الراوي أخبار حوادثها في زمن وقوعها عندما كان أسيرا بالقصر الكبير ثم بمراكش، وهي تمتد من الفصل 66 إلى الفصل 146.

وإذا كانت أغلب هذه الفصول مهمة للمؤرخ وقراءتها شيقة بالنسبة لعامة القراء المهتمين بتاريخ العلاقات بين بلاد المغرب والدولة العثمانية وشبه الجزيرة الإيبيرية نظرا لاطراد الأخبار فيها عن الدولة السعديّة وغلبة أساليب الحكي والسرد عليها، فإنه يمكننا الوقوف عند بعضها لتبيان مدى أهمية المعلومات التي سجّلها الراوي عن هذه الدولة قبل الأسر وبعده:

ـ **ف 6**: أ ـ مبايعة الجنود المغاربة للسلطان أحمد يوم 4 غشت 1578 مباشرة بعد الانتصار في وادي المخازن؛ ب ـ سماح المنصور لبعض النبلاء البرتغاليين بالبحث عن جثة الملك الدون سبستيان والعثور عليها مشوهة ونقلها إلى القصر الكبير ثم إلى سبتة؛

ـ **ف 10**: رجوع المنصور إلى فاس، وبعثه سفارة للأتراك مبديا تبعيته لهم، وتصفيته لثلاثة قواد أندلسيين كبار كان يخشى خيانتهم؛

ـ **ف 12**: تعيين المنصور لولده محمد الشيخ وليا للعهد وتركه حاكما على فاس، ورجوعه إلى مراكش، وسياسته الاقتصادية المنفتحة على التجار الأوروبيين؛

ـ **ف 22**: قطع المنصور الصلة بالسلطان العثماني وتمزيق رايته رضوخا لطلب الإمبراطور الإسباني فليبي الثاني، وتوقفه عن أداء الغرامة له ؛

ـ **ف 26**: اعتقال المنصور للشرفاء السعديّين، وسمل عيونهم خوفا من خيانتهم ؛

ـ **ف 27**: توطيد أركان السلطة واستتباب السلم في أرجاء المغرب، وأمر المنصور لقواده بتشييد «**فاخر الدور ويغرسوا أجمل الغرسات ويأتوا بالماء بالسواقي الكبرى لدورهم وغرساتهم حتى تكتسي المدينة حلة من البهاء لا نظير لها في أوربا كلها. وصار يباع في الدكاكين والأسواق كل بضائع فرنسا وإيطاليا وإنجلترا وإسبانيا بأثمنة دون الأثمنة التي تباع بها في البلدان التي تصنعها. ومع ذلك كان التجار يربحون مائة في المائة في السكر والشمع والجلود التي يتزوّدون منها في بلاد البربر. وبلغت يومئذ مراكش من العظمة، ما قيل بأنها لم تبلغه قبل عهد الشريف أحمد ولا بعده**» (ص68)؛

ـ **ف 30**: أ ـ ثورة اجتماعية في الأطلس سنة 1583 بسبب معاصر السكر «**واحتجاجا على ما تقترن به العقود المبرمة مع النصارى من الاستحواذ على الأراضي لغرس قصب السكر، فوقع سكان تلك الجبال في الفقر**

المدفع وانقطعت عنهم أسباب العيش» (ص72)؛

ب ـ بناء قصر البديع (ص 73)؛

ج ـ مشاريع اقتصادية كبرى: «**أمر الشريف** [أحمد] **بإقامة صيدلية تصنع فيها أعداد كبيرة من السيولات المقطرة وعدد كبير من الشربات سواء منها ما يدخل في تركيب الأدوية أو تلك التي فيها لذة للشاربين، كما أمر بإقامة معمل تصهر فيه قطع المدفعية ويصنع البارود بوفرة** [...] **وأقام معملا آخر لصناعة البنادق والسيوف وسروج الخيل صناعة تامة الإتقان، كما أقام معملا لصناعة الزليج الملون على مختلف الأصناف. والقيمون على كل هذه المعامل معلمون إنجليز وفلامنك وفرنسيس. أما العمال فمن أسرى النصارى الغلمان من معركة القصر الكبير الذين اختص الشريف بهم لخدمة دار ملكه.**» (ص73)؛

ـ **ف 31**: اعتناء المنصور الشديد بالتجارة الداخلية والخارجية، وبالتصنيع والتصدير، ورفعه لقيمة الذهب والفضة، وفوائد هذه السياسة الاقتصادية على دولته (ص76)؛

ـ **ف 34.33**: عزم علي باشا ـ والي الجزائر ـ احتلال العرائش من جمة البحر سنة 1584، وتسليح مراد الرايس بـ «**60 غليوطة و6000 جندي تركي**» (ص80)، واستنجاد المنصور بالأسطول الإسباني، وحيله لمنع العرائش على القوّتين البحريتين العظميين؛

ـ **ف 37.35**: بعث المنصور عساكره لفتح بلاد شنقيط اتقاءً لشرّهم، وإبادتهم شبه الكاملة في فيافي الصحراء؛

ـ **ف 38**: ضغط إسبانيا لتسليم العرائش، وتحايل المنصور على الطلب (ص88.89)؛

ـ **ف 41**: ولع المنصور العظيم بشراء «**الأحجار الكريمة**» من نبلاء وأثرياء أوروبا؛

ـ **ف 46.45**: أ ـ بلوغ المملكة السعدية درجة عظيمة من الازدهار لم تعرفها من قبل بفضل الأمن والتجارة،

ب ـ امتناع المنصور عن تسليم العرائش لإسبانيا أو استبدالها بمازغين (الجديدة)؛

ـ **ف 52**: طلب ملكة إنجلترا من المنصور تخصيص مرسى لأسطولها التجاري في مناورة منها لتحويل هجوم الأسطول الإسباني الضخم عن مملكتها، ورفض السلطان لطلبها؛

ـ **ف 53**: انكسار الأسطول الإسباني في مياه الساحل البريطاني سنة 1588؛

ـ **ف 60.56**: إعداد الحملة على بلاد السودان بعد جمع الأخبار عنها، وتعيين القائد جؤذر باشا رئيسا لها، وانطلاقها سنة 1591،

وسيطرتها على مملكة كاو: «**لكن لم يعثر فيها إلا على ذهب قليل جدا بالمقارنة مع ما كان متوقعا**» (ص127)؛

ـ **ف 69.68**: مقتل أبي الحسن ـ ثالث أولاد المنصور وحاكم تادلة ـ سنة 1593 على يد أسير إسباني نبيل اسمه بيرو كاليكو اشتراه وأخصاه: «**وكان في خدمته في الجزائر وتونس يهود يشترون له عند كل غنيمة يحصل عليها الأتراك ما استطاعوا من النصارى الشباب من ذوي الصحة الجيدة**. فكان يلبسهم في الحين على الطريقة المغربية، ويمنحهم الكثير من الحظوة، ويعطيهم رواتب عالية» (ص143). وكان هذا الحدث المروع «**أول اضطراب أصاب سكينة الشريف** [أحمد] **منذ بداية حكمه.**» (ص147)؛

ـ **ف 80.70**: أ ـ دخول مولاي الناصر ابن عبد الله الغالب الريف من مليلية قادما من إسبانيا؛

ب ـ قلق المنصور العظيم على سلطانه وحشده للجيش بمراكش: «**من دون أن ينتظر ساعة واحدة، قرع الشريف طبله الكبير، إعلانا بخروجه إلى الحرب، وفي اليوم نفسه أخرج محلته ونام في خيمته برفقة علوج بيته فقط.**» (ص150) ؛

ج ـ حملة محمد الشيخ ضد الناصر وفشلها؛

د ـ زحف الناصر على فاس وانضمام الأعراب الذين «**كانوا ينعتون مولاي أحمد وأبناءه بالطغاة**» (ص157) إليه وانهزامه في 3 غشت سنة 1595؛

هـ ـ هجوم الناصر الثاني على فاس وانتصار الباشا مصطفى ـ قائد جيش محمد الشيخ ـ عليه يوم 18 ماي 1596؛

ـ **ف 89**: انتشار وباء الطاعون بمراكش والمغرب ينة 1598، وخروج المنصور إلى البادية تفاديا له؛

ـ **ف 92**: قتل محمد الشيخ لقائده الباشا مصطفى؛

ـ **ف 97**: طغيان الجند بفاس حتى صارت المدينة «**شبيهة بكهف لصوص**» (ص199)؛

ـ **ف 99**: استمرار عصيان محمد الشيخ لوالده وبداية شعور المنصور بتدهور أحوال دولته سنة 1601؛

ـ **ف 101**: أ ـ انتشار وباء الطاعون مجددا في فبراير سنة 1601 وشدة فتكه بالناس؛

ب ـ انتشار الجفاف بالبادية هذه السنة؛

ـ **ف 105.108**: أ ـ وصول الراهب كونسطاسيو إلى مراكش من مازيغن، ووعظه للمسيحيين، وتشهيره بالأعلاج والأندلسيين

المسلمين، وحبسه ثم إطلاق سراحه، ووفاته في منتصف سنة 1605 بالطاعون؛

ب ـ آثار الطاعون ومآسيه بين أهل مراكش؛

ـ **ف 109ـ116**: محاولات المنصور العديدة لتجنب مواجهة ابنه محمد الشيخ عسكريا؛

ـ **ف 117**: خروج المنصور للقبض على محمد الشيخ، وحث مولاي زيدان له على ذلك؛

ـ **ف 119ـ120**: أ ـ خوف محمد الشيخ من حملة أبيه وهربه إلى زاوية الخمار سنة 1588؛

ب ـ إلقاء القبض على محمد الشيخ وأمر المنصور بحبسه بمكناس؛

ـ **ف 121**: تحويل المنصور أنظار الناس إلى الأندلس وإيهامهم برغبته في إنقاذ الأندلسيين، «**وقد أحدثت هذه الأخبار عندما انتشرت قلقا كبيرا بإسبانيا حيث يعرفون أنه يوجد من بين المقربين من الشريف الكثير من المسلمين الغرناطيين والبلنسيين الذين يغرقونه بالأخبار والتقارير** » (ص246)؛

ـ **ف 122**: أ ـ عمل المنصور على عودة الأمن والاستقرار إلى فاس؛

ب ـ استقبال المنصور لابنه، وإخبار قواده بأن محمد الشيخ «**لم يعد يصلح لأي شيء**» (ص248)، وتنصيب زيدان حاكما على فاس؛

ـ **ف 123**: أ ـ استعداد المنصور للعودة إلى مراكش، وطلب علماء فاس بقاءه للاحتفال معهم بعيد المولد النبوي؛

ب ـ وفاة السلطان المنصور المفاجئة بفاس في منتصف 1603 (الموافق 16 ربيع الأول 1012هـ) بعد تعيينه أبا فارس «**ملكا على مراكش ومولاي زيدان... ملكا على فاس**» (ص250)؛

ـ **ف 124ـ128**: أ ـ اتهام زيدان بتسميم أبيه طمعا في ملك أبيه؛

ب ـ عمل زيدان على بيعة قادة الجنود له بفاس، وهروب بعض كبار القادة إلى مراكش؛

ج ـ انحياز كبار قواد المنصور إلى أبي فارس، وبداية الحرب الأهلية بين أبي فارس وزيدان، وتدهور أوضاع المغرب الاجتماعية والاقتصادية تدهورا كبيرا: «**في منطقة سوس وحدها تم تهديم ثمانية عشر معصرة من معاصر السكر يعمل في كل واحدة منها أكثر من 4000 رجل، وتغل مليوني أوقية، وفيها كان تجار أوربا وخاصة منهم الانجليز والهولانديون والفرنسيون والايطاليون قد استثمروا مبالغ كبيرة من المال. وكلهم فقدوا في يوم واحد أكثر من مليوني قطعة ذهبية، ومعظمهم أفلسوا، لأن هؤلاء الهمج ينهبون ويخربون كل شيء**

عندما يستسلمون لغضبهم الحيواني الشديد، لدرجة أنه لا سبيل الآن لتحديد مواقع هذه المعاصر أو الحقول التي كان يزرع فيها قصب السكر» (ص254)؛

ـ **ف 129.130**: إطلاق أبي فارس لأخيه محمد الشيخ شريطة أن يحارب زيدان؛

ـ **ف 131**: هزيمة زيدان أمام جيش محمد الشيخ، ودخول هذا الأخير إلى فاس؛

ـ **ف 140.142**: محاولات أبي فارس لغزو فاس عام 1606، وأخذها من محمد الشيخ، وفشله.

ـ **ف 143.144**: ينتهي الكتاب بكيفية افتداء المؤلف ونبيل برتغالي آخر على يد مغامر إنجليزي يدعى أنطونيو شيرلي وإبحارهما إلى البرتغال من ميناء أسفي.

بطبيعة الحال، ليست كل معلومات الأسير البرتغالي دقيقة، كما أن تقديمه لها يتم في الغالب من وجهة نظر أوروبية ومسيحية جزئية ومتعالية (صحّح المترجمون بعض أخطاء الأسير في الهوامش).

ومع ذلك، فالكتاب يقدم صورة غير رسمية عن عصر المنصور وأبنائه، وهذه الصورة تسمح لنا ـ بالمقارنة مع مصادر مغربية وأوروبية أخرى ـ باستكمال المعرفة حول هذه المرحلة الطويلة من تاريخ الدولة السعدية.

فقد عرف المغرب خلال هذه الفترة الهدوء والاستقرار، ونعم بازدهار مالي واقتصادي وعمراني قلّ نظيره وإن استفادت منه أساسا نخبة عسكرية أندلسية وأخرى تجارية مغربية وأوروبية، وتميز بإشعاع فكري وثقافي وعلمي ملحوظ.

إلا أن هذا الازدهار وهذه الرفاهية لم يمسا باقي الطبقات الاجتماعية، خاصة تلك التي لم تكن تنتمي إلى محيط الحواضر الرئيسية مثل مراكش، وفاس، وسلا، وتطوان، والقصر الكبير. وهو ما يفسر إلى حدّ ما انتشار السّخط وعدم الرضا بين الفئات الاجتماعية الدنيا، وقيام بعض الثورات في البوادي والجبال، وانتشار الفوضى والنهب والتخريب في الممتلكات والعمران بعد موت المنصور وتصارع أبنائه على العرش.

تمت الترجمة العربية على يد الباحثين الثلاثة المغاربة بصورة حسنة على وجه العموم، ممّا جعل قراءة فصول الكتاب ميسرة ومتتابعة.

وإذا كانت بعض الهنات قد شابت الترجمة، مثل اضطراب التنقيط في مواضع كثيرة من الكتاب، أو غلبة الترجمة الحرفية أحيانا على بعض الفقرات والجمل، أو ركاكة تركيب بعض

الجمل والمقاطع أحيانا أخرى، أو أخطاء قليلة في الرقن (ص25)، أو نسخ بعض الأعلام الجغرافية على الطريقة اللاتينية (مثلا ص113ـ114، 123: 'تنبوكتو' عوض 'تنبكت')، فإن هذه الهنات لا تقلّل بتاتا من فوائد نقل هذا العمل الكثيرة، وإمكانيات الاستفادة الهائلة منه في الدرس والبحث والتأريخ.

كما أن المترجمين المغاربة أضافوا إلى متن العمل المترجم مقدمتين تضعان رواية المؤلف البرتغالي في سياقها التاريخي، وعددا من الفهارس المفيدة: فهرس الأعلام البشرية، فهرس الأعلام الجغرافية، فهرس الصور والرسوم والخرائط، فضلا عن لائحة مختارة من المراجع المساعدة.

وتبين هذه الميزات مدى أهمية العمل الجماعي المنسجم في مجال ترجمة الآثار الفكرية، سواء التاريخية أو غيرها ◙

نزار التجديتي

جامعة عبد المالك السعدي ـ تطوان